

أشكره على الترويج!

نيقولاوس فان دام*

ليس من الغريب لمختلف المناطق والبلدان في العالم العربي ان تحكّمها مختلف السلالات العربية وان هذا التنوع في الحكم يجوز ان يعتبر امراً طبيعياً أكثر مما هو مجرد نتيجة للحكم الاستعماري وانه لا يجب ان يلام الاستعمار فقط للانقسام الذي يسود العالم العربي اليوم (ولا اقول التجزئة) وهو الانقسام الى حوالي ٢٠ دولة، ويجب ان يضاف الى ذلك ان وجود العديد من الحكام في مختلف المناطق العربية لا يعنى حتماً التجزئة، حيث ربما كان ذلك اساساً متيناً للتعاون المتّمس، وربما كان التعاون على اساس الاحترام المتبادل للتنوع العربي يعطي افضل النتائج على المدى الطويل فيما يخص الوحدة العربية ويفوق الوحدة الشاملة المفروضة اجبارياً التي تتجاهل هذا التنوع؛ ان وجود هذا التنوع امر طبيعي حيث ان المناطق المتجانسة تحانساً كاملاً على اساس سياسي او لغوي او ثقافي ليست الامجد تصور خيالي في نظري حتى في دولة صغيرة مثل هولندا، واعتقد ان الاتحاد الاوروبي خير مثال لفكرة تقبل لاحترام التنوع المتبادل الذي يكون افضل اساس لتحقيق التعاون والوحدة وليس تجاهلها كما حدث في العالم العربي في بعض الظروف في الماضي، وبالإضافة الى ذلك، اذا ما كان الاستعمار هو السبب في تجزئة العالم العربي الى مجموعة وحدات دولية تختلف نوعاً ما عن الدول او التجزئة التي كانت موجودة قبل ذلك فهل يمكن الاستمرار في ذكر هذه النقطة كذريعة لاستمرارية وجود معظم الدول العربية على نحو ما تركتها القوى الاستعمارية؟ مثل سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر الخ... ليس من الممكن ايضاً القول ان الدول العربية التي حصلت على استقلالها رسمياً في الاربعينيات والخمسينيات توفر لها الوقت والامكانيات الكافية لتحمل المسؤولية على الأقل عن استمرار وجودها على ما كانت عليه منذ نصف قرن؟ بمعنى آخر اعتقد انه لا يمكن الاستمرار في لوم القوى الاستعمارية السابقة الى الابد لأنها لم تحقق نوعاً من الوحدة العربية وذلك بالرغم من ان هذه القوى الاستعمارية نفسها هي التي كانت تحاول ان تفرق العالم العربي وتحكّمه.

٥ - يقول السيد / الاحمد انني اذا تفهمت «روح المنطقة» لامكنني تاويل السبب الذي جعل من «اوري لوبراني الذي كانت مدفعيته على مشارف مدينة حمص يندحر بسرعة مذهلة لتصير «مدفعية غازي كنعان» الامنية هي التي تهدد بدورها شمال فلسطين».

اعتقد بأن السيد / الاحمد يعطيني حق الافادة من الشك حين اقول ان لدي على الأقل فكرة عما يعنيه حيث اخبره انه تم قذف منزلي في بيروت الغربية بنيران المدفعية الاسرائيلية اثناء الاجتياح الاسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢ وقد نجوت من الموت باعجوبة خلال تلك الاعتداءات.

وانا اتفق تماماً مع رسالة السيد / الاحمد اي انه على العالم او الباحث ان ينظر بعين الاعتبار ليس فقط الى المعلومات التفصيلية والاحصائيات الخاصة بالعشائر والطوائف ولكن ايضاً عليه ان يحاول ان يتفهم «روح المنطقة»، الا انني اود ان اضيف ان البحث العلمي الذي يتفهم الروح ويتجاهل المعلومات التفصيلية يعتبر ايضاً ناقصاً علمياً وخاصة عند تناول موضوع حساس مثل الموضوع الذي يناقشه كتابي عن سوريا. واني لعلى دراية تامة بقوة روح العروبة السائدة في سوريا ولعلها اقوى في سوريا عنها في اية منطقة اخرى من العالم العربي ووصف مركز السلطة السورية بأنه «قلب العروبة النابض» انما هو وصف جدي، الا انني اعتقد في الوقت نفسه ان هناك - بين السكان السوريين - بالإضافة الى مشاعرهم القوية العربية الفياضة والاصيلة توجد ايضاً مشاعر وولاءات اخرى من بينها ولاءات اساسية مثل الطائفية والاقليمية والعشائرية، وربما كان احد السباب وجود كافة هذه المشاعر معاً - والتي تبدو في اول وهلة وكأنها متناقضة - هو ان العروبة او الانتماء للهوية العربية الاكثر شمولاً، قوية للغاية، وربما اقوى من الانتماء الى الهوية السورية العربية بعينها.

وكم لحظت في سوريا انه اذا ما وجهت لأحد هذا السؤال البريء: «ما هو موطنك الاصلي؟» (وهو سؤال عادي جداً في معظم البلدان) لأجابه «موطني الاصلي لا أهمية له على الاطلاق حيث ان كلنا عرب». الا انه في الوقت نفسه تتضمن هذه الاجابة المثالية - العقائدية الى حد ما - حقيقة اخرى وهي الهويات الاقليمية، وفي معظم انحاء العالم ان الهويات الاقليمية طبيعية جداً والتنوعات مقبولة وطبيعية. ان العرب القوميين في سوريا الذين يجيبون بأنه «لا أهمية للموطن الاصلي» انما يريدون بهذه العبارة التعبير بطريقة غير مباشرة انه يمكن النظر الى الهوية الاقليمية كنوع من الاقليمية المفروضة التي يمكن اعتبارها مخالفة نوعاً ما للعروبة الوجودية، ومن ناحية اخرى اود ان اضيف انه في مناسبات عديدة بينما لم اوجه اي سؤال لشخص ما في سوريا عن موطنه الاقليمي افاًجا بذكر موطن بعض الأشخاص وعلى سبيل المثال عند مروري بمنطقة سكنهم ويصحبتي رفقاء سفر سوريون يقول احدهم «هذه هي قرية او مدينة فلان الفلاني»، بينما لو كنت قد وجهت سؤالاً للشخص نفسه مسبقاً لرد على العبارة نفسها «هذا ليس مهماً أننا كلنا عرب».

اعتقد بأن وجود كل هذه الطبقات من الهويات والولاءات والعقليات الفياضة حقاً انما هي نموذجية فيما يخص دولة مثل سوريا مثلما هي ترمز الى العديد من الدول الاخرى في العالم، كما في اعتقادي ان كل هذا الحشد من المشاعر في آن واحد يعكس تعايش جسد وروح الشخصية السورية كما يكشف عن تكافل احصائياتها ووقائعها ومثالياتها وايدولوجيتها.

٦ - وختاماً اود ان انتهي بالقول ان كل من سوف يقرأ كتابي - وانا اؤكد انه مكتوب بروح ايجابية - لن يصاب بخيبة امل اذا ما كان مستعداً لقراءته بعد ارتداء نظارة «محادبة او واقعية او موضوعية» كما آتمنى ان المواطنين في سوريا ولبنان وفي غيرها من البلاد لن يمنعوا من الاطلاع على هذا الكتاب لان مناقشة الموضوع بإيجابية سوف تحل مشكلة مثل الطائفية - ان كانت هناك مشكلة اصلاً - بطريقة افضل من اختيار تجاهلها، الا انه اذا فرضت قيود وانحصرت تداول كتابي بين مجموعة داخل النظام السوري - ما يقترح السيد / الاحمد - فسوف اكون قانعاً حالياً لو سمح على الأقل لجميع الاعضاء العاملين وانصار حزب البعث بقراءته، لان ذلك سوف ينطوي - حسب الاحصائيات المنشورة عام ١٩٨٥ في جريدة المناضل الداخلية التابعة لحزب البعث (وكان السيد / الاحمد رئيس تحريرها في الماضي) - على ان ما لا يقل عن نصف مليون قارئ سوري سوف يطلعون على هذا الكتاب، مما يعني ان كتابي سوف يصبح من «اوسع الكتب انتشاراً» في سوريا.

* مستشرق هولندي - وحالياً سفير هولندا في مصر - كتب هذا المقال معبراً عن وجهة نظر شخصية.